جُرْهم البائدة

من مقالة لعالم عراقي محقق

١ توطئة

البحث عن الامم البائدة من اشقّ الامور واشدّها ارهاقاً للكاتب · ولاسيّما البحث عن امم العرب البائدة · لان الاسانيد التاريخية التي في ايدينا نزرة قليلة لا تبلُّ صدى غليل · ولا تهدّئ جوى عليل · هذا فضلاً عن ان اكتشاف الآثار · في قديم الديار · ساعد العلماء كل المساعدة على توهين الموضوع من الاخبار · وتمكين ما قرّ منها على قرار · كما تعلم ذلك من بلاد مصر والشام وفلسطين والعراق وفارس وقبرص واليونان وغيرها

اما ديار العرب فان ابوابها بقيت موصدة في وجوه العلماء الباحثين من ابناء الافرنج حتى هذه الايام الاخيرة · فدخل بعضٌ منها افراد من اهل الجرأة والاقدام · ففازوا بما يكون وراءهُ اجلّ الفوائد واعظم العوائد · ثم انهم لم يستطيعوا ان يعاودوا الكرّة اليها · لكثرة ما حُفّت تلك الديار · بضروب المخاوف والاخطار · فوقفوا عند ذاك الطوار · والمشوّقون الى الوقوف على حقائق الآثار · في تأسُّف وتلهف وقلب مستطار

ومن احياء العرب البائدة التي حار العلماء في امر اصلها وحقيقتها جُرْهم · فان كتبتنا لا يتفقون مع كتاب الافرنج · وهؤلاء لا يستطيعون ان يقولوا في شأنهم القول الفصل ولهذا بقيت المسئلة معضلة · وها نحن نورد رأي القبيلين في فصلين منفصلين · ثم نبحث في فصل ثالث عن ذكر اسم جرهم ووروده في سفر من ذاك الكتاب القديم الكريم المنزل على صدر الكليم · وبذلك يزول الاشكال من نحو حيّز كاتب اديب · ونقطع جهيزة قول كل خطيب · فنقول

٢ جرهم واقسامهم نقلاً عن رواة العرب ومؤرخيهم

قال في كتاب البدء والتاريخ (٣ : ٣١) اما العرب فانهم يسردونها (اي انسابهم) الى قحطان بن عابر · فولد قوط جرهم وجديل · [اما جديل] فانقرضوا · واما جرهم فنزلوا مكة وصاهروا اسمعيل بن ابرهيم

وقال الطبري في تاريخه (١ : ٢١٩) : « يقال ان عمليق اول من تكلم بالعربية حين ظعنوا من بابل فكان يقال لهم ولجرهم العرب العاربة » اه

وذكر ابن خلدون في كتابه (٢ : ٣١) جرهم فقال : « واما جرهم فقال ابن سعيد : انهم امتان . امة على عهد عاد . وامة من وُلد جرهم بن قحطان . ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ملك اخوهُ جرهم الحجاز . . . . قال : وهذه الامة الثانية هم الذين بُعث اليهم اسمعيل وتزوج فيهم » اه

وقال القلقشندي في نهاية الارب في معرفة انساب العرب : « بنو جرهم قبيلة من العرب العاربة البائدة ذكرهم ابن سعيد وقال : « كانوا على عهد عاد فبادوا » . « ثم قال : وبنو جرهم ايضاً بطن من القحطانية . . . وكانت منازل بني قحطان اليمن . فلما ملك يعرب ابن قحطان اليمن ولّى اخاهُ جرهم الحجاز فاستولى عليهِ وملكهُ . . . وقيل انما نزلت جرهم الحجاز مع بني قطورا من العمالقة لتخطّ اصاب اليمن . ثم غلبت جرهم العمالقة على مكة وملكوا امرها ولم يزالوا بمكة الى ان نزل اسمعيل مكة فنزلوا عليهِ فتزوج منهم وتعلّم لغتهم . وقدم عليهِ الخليل وقاما ببناء البيت وتولاّهُ اسمعيل . ثم بعض بنيهِ . ثم استولت جرهم على امر البيت وتفرقت قبائل اليمن بسيل العرم فنزلت خزاعة مكة وغلبوا جرهم عليها فخرجت جرهم من مكة ورجعوا الى ديارهم في اليمن فاقاموا بها حتى هلكوا » اه

وقال المسعودي (في ١ : ٧٩ وما يليها من الطبعة البارسية) « وقحطان ابو اليمن كلها . . . وهو اول من تكلم بالعربية لاعرابهِ عن المعالي وابانتهِ عنها . ويقطان بن عابر ابن شالخ هو ابو جُرهم . وجرهم بنو عمّ يعرب وكانت جرهم ممن سكن اليمن وتكلموا بالعربية ثم نزلوا مكة فكانوا بها »

وجاء في التاج « جرهم كقنفذ : حيّ من اليمن وهو ان قحطان بن عابر بن شالخ ابن ارفخشذ بن سام بن نوح . نزلوا مكة وتزوّج فيهم اسمعيل وهم اصهارهُ ثم ألحدوا في الحرم وابادهم الله تعالى . قال ابن اسحاق : وكان اخوهُ قطورا اول من تكلم بالعربية عند تبلبل الالسن . كذا في التوشيح » اه

وقال هشام « قال ابي : اول من تكلم بالعربية بعد البلبلة يقطن بن عابر بن شالخ ابن ارفخشد بن سام بن نوح . ويقال : ان يقطن هو قحطان عُرّب فسُمّي قحطان . ولذلك سمي ابنهُ يعرب بن قحطان لانهُ اول من تكلم بالعربية »

وقال ابن الاثير في الكامل (١ : ٢٨ من الطبعة المصرية) « ولد آرم بن سام عوص

وعابر وحويل . فولد عوص عابر وعاد وعبيل . وولد عابر بن آرم ثمود وجديس . وكانوا عربا يتكلمون بهذا اللسان المضري وكانت العرب تقول لهذه الامم ولجرهم العرب العاربة . ويقولون لبني اسماعيل العرب المتعربة لانهم انما تكلموا بلسان هذه الامم حين سكنوا بين اظهرهم ... قال هشام بن الكلبي : جرهم من ولد يقطن بن عابر » اه

وقال ابو الفداء (في ١ : ٧٧ من طبعة الاستانة) « اما جرهم فهم صنفان : جرهم الاولى وكانوا على عهد عاد فبادوا ودرست اخبارهم وهم من العرب البائدة . واما جرهم الثانية فهم من ولد جرهم بن قحطان وكان جرهم اخا يعرب بن قحطان » . وقال في (١ : ١٠٤) « قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة اقسام : بائدة وعاربة ومستعربة . اما البائدة فهم العرب الاولى الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد وثمود وجرهم الاولى وكانت على عهد عاد فبادوا ودرست اخبارهم . واما جرهم الثانية فهم من ولد قحطان وبهم اتصل اسمعيل ابن ابرهيم الخليل عم وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح » (ص ٥ ١)

هذا جل ما جاء في كتب العرب عن جرهم . وفيه ما فيه من الخبط والخلط وقد تكلم عن جرهم غير من ذكرناهم من مؤرخي العرب لكن كلامهم لا يخرج عما اوردناه ولهذا عدلنا عن نقله خوفا من الاطالة على غير جدوى

٣ جرهم في نظر الافرنج

كتب الافرنج شيئا كثيرا عن العرب . والراسخو القدم في النقل والتاريخ لم يستطيعوا ان يبتوا رأيا في مسألة جرهم بل اكتفوا بايراد اقوال العرب بدون ان يمحصوها لانهم لم يتوفقوا في الهداية الى جرهم الاولى ولا الى جرهم الثانية . ولهذا لا نأتي بذكر اقوالهم لانها كلها ترجع الى هذا المعنى

٤ ورود اسم جُرْهُم في التوراة

ذكر ابن الاثير وابو الفداء (وسبقهما هشام ابن الكلبي) نسب جرهم فقال كل من هؤلاء الثلاثة هو جرهم بن قحطان او يقطن بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح وهذا يوافق أتم الموافقة نسب هدورام المذكور في التوراة ويقال فيه هدورم او هدرم . فاتفاق كلام اشهر نسابي العرب مع كلام التوراة هو من اعظم الادلة على صحة ورود ذكر جرهم وصحة وجودهم في التاريخ

الدليل الثاني هو ان هدرم وجرهم هما واحد لغة اذا نظرنا اليهما من جهة اللغة واعتبرنا

سنّة النقل والابدال عند العرب . فلا غرو انهم قالوا أولاً في هدرم هجرم . وقلب الدال جيماً امر مشهور ان كانت الدال مهملة او معجمة . مثال ذلك : الادل والاجل . الفَوْد والفَوْج . الدوشق والجوسق . الجشيشة والدشيشة . وارتعد وارتجّ . والمرَد والمرَج . والاَيج والاَبد . الى غير هذه الالفاظ وهذا من باب ابدال الدال المهملة جيماً او بالعكس . ومن ومن شواهد ابدال الدال المعجمة جيماً او بالعكس : لَمَذَ ولَمَجَ . ومجَر في نومه وهذر . والهجر في منطقه مثل أَهْذَرَ . الى غيرها . وعليه قالوا في هدرم او هذرم هجرم . ولما كان عندهم الحرف القوي يغلب الضعيف و بتقدمهُ على ما ذكرهُ السيوطي في كتابه المزهر وسائر اللغويين قدموا الجيم وقالوا جُرْهُم . على ان الدليل اللغوي لا يكفي وحدهُ لو لم يكن هناك الدليل الاول الذي يساعد المؤرخ او الناقد على ضمّ هذا الدليل الثاني الى الاول

الدليل الثالث كلام الطبري وهو المؤرخ الصادق الرواية الحسن النقل عن الاقدمين . فقد قال في تاريخه (١ : ٢١٨) وجرهم اسمهُ هذرم . ثم سرد نسبهُ فقال : هو ابن عابر ابن سبا بن يقطن بن عابر بن شالخ بن ارثخشد بن سام بن نوح . فزاد على نسبهِ المشهور قولهُ : هو ابن عابر بن سبا . ولعلّ ذلك وقع من الناسخ . والطبري هو المؤرخ الوحيد الذي صرح بكون جرهم وهذرم او هذرم شيئاً واحد

فقد اتضح اذاً ان جرهم وهذرم شيء واحد . وان العلماء والباحثين من الافرنج الذين قالوا ان جرهم من مخلوقات مخيلة العرب هم سيئو الحظ وهم بين لجلاء المسئلة بعد ايراد البراهين المذكورة . على اننا لا نتكرهان هادورام جاءت مصحفة تصحيفاً ثانياً لاسم قبيلة اخرى . وها نحن نعقد فصلاً لهذا الرأي

٥ ورود هادورام مصحفة تصحيفاً ثانياً بمعنى جرهم

من عادة العرب في تصرفهم بالالفاظ الاعجمية انهم يتلاعبون بها تلاعب القط الصغير بالهرّته فربما قطعوا اللفظة الواحدة الى شطرين وعتدوا بناصية كل شطر معنى واحداً كما قالوا في أَدْرُوقِيلَة اليونانية « أَدْرة » و « قِيلَة » وكلاهما بمعنى واحد . وربما قطعوا اللفظة الواحدة قطعتين فتمسكوا بالاولى منهما وتركوا الثانية كما قالوا في هزاردستان « هزاراً » او التوا صدر الكلمة واحتفظوا بعجزها كما قالوا في نيم برشت « برشت » وربما صحفوا الكلمة تصحيفين او ثلاثة وجعلوا لكل تصحيف معنى مستقلاً يختلف عن معنى صاحبهِ . مثال ذلك لفظة اوفيانوس اليونانية فانهم غيروها بصورة اوفيانوس وافيانس واوفيانس وافريدوس

وعقيون وخصوا الاربعة الاولى لتقاربها بالمعنى المألوف اي بمعنى البحر المحيط . وخصوا عقيون بمعنى آخر . قال في القاموس : عقيون كصهيون : بحر من الريح تحت العرش فيه ملائكة من ريح معهم رماح من ريح ناظرين الى العرش تسبيحهم سبحان ربنا الاعلى . اه

وعلى مثل هذا الوجه جروا في الاعلام . فان هادورام الوارد في التوراة لم يجيء في كتبهم بهذه الصورة بل ورد بصورة هدرم او هدرم وقالوا انهُ جرهم . وبصورة عاد إرم او عاد وارم . وظنوا انهُ عاد بن ارم او عاد إرم لعاد البائدة او المنقرضة

والغريب في هذا اللفظ المركب انهم استعملوا ارم لكل امة انقرضت او بادت من الوجود . قال الطبري في تاريخه (١ : ٢٨٩) : « كان يقال لعاد في دهرهم : « عادُ إرَم » فلما هلكت عاد قيل لثمود ثمود ارم (بعد الهلاك) فلما هلكت ثمود قيل لسائر بني ارم : أرمان » اه . ومثل عاد ارم وثمود ارم : جش ارم (ياقوت الحموي في معجم البلدان مادة جش)

ومن الادلة على ان عاد وارم هما قبيلة واحدة مجيء هذين اللفظين مزدوجين متجاورين متصلين في كثير من كتب المؤرخين عند كلامهم عن الامم البائدة من العرب كقول ياقوت مثلاً في كلامهِ عن جش ارم ما نصهُ : « جبل عند اجأ احد جبلي طيء اسفل الاعلى سهل ترعاهُ الابل والحمير كثير الكلاء وفي ذروته مساكن لعادوارم فيه صور منحوتة من الصخر » اه . فانت مخير في قراءة هذه الكلمة كلمة واحدة هكذا « لعادُوَرَام » وان تقرأها كلمتين الثانية معطوفة على الاولى هكذا : « لعادٍ وإرَمَ » .

اما سبب جعل العرب كلمة « إرم » صفة لكل قبيلة بادت فهو لانهم اعتبروا هذه اللفظة في معناها الاصلي الارمي لأنَّ معنى « ارم » باللغة الارامية الهالكة او الماضية او البائدة وهي مشتقة من مقلوب مادة « ر م ا » فقولهم اذاً عاد ارم وثمود ارم وجش ارم كقولهم عاد البائدة وثمود المنقرضة وجش الهالكة . ولهذا صحَّ قول الطبري الذي نقلهُ ابن خلدون عند قولهِ في عاد فلما بادت عاد قيل لها « عاد ارم » الخ .

ومما يدل على ان عاد ارم وجرهم من اصل واحد هو هادورام قول اثبت مؤرخي العرب وامهرهم في نقد الروايات ابن خلدون فقد قال نقلاً عن عبد الملك بن حبيب (ومثلهُ فعل السيوطي في المزهر ١ : ١٧) : « سميت عاد (الاولى او عاد ارم) باسم جرهم لانهُ كان جدهم من الأم » اه . قلت : ان اتفاق الاسمين في المعنى واختلافهما في اللفظ هو عين الحق لكن التعليل غير صحيح بل هو كما اوردناهُ

وعاد ارم المذكورة في سورة الفجر هي عاد الاولى اي القبيلة واضيفت الى العماد لانها اشتهرت بابنيتها العالية الرفيعة (والعماد في هذه الابنية) وقد ذكر پلينيوس هؤلاء الاقوام وسماهم Atramitæ وقال عنهم انهم عرب موطنهم وسط ديار العرب اي الاحقاف

وعلى هذا يكون جُرهُم الاولى ابناء هادورام عند اول سكناهم تهائم اليمن . فلما انتقل ابناؤهم الى الحجاز واتصلوا باسماعيل قيل لهم جرهم الثانية وهذا أصح الروايات وأوفقها للحقيقة وللتوراة واقبلها للعقل واثبتها للتاريخ . وهكذا يصح كلام المؤرخين وتتفق رواياتهم بعضها مع بعض ولا يقع تنازع بينهم . ونحن نورد لك بعض الشواهد

قال ياقوت في منازل القبائل الاولى البائدة (مادة يمامة) : « [وكانت] مساكن جرهم [الاولى] بتهائم اليمن ثم لحقوا بمكة ونزلوا على اسماعيل [فسُمُّوا حينئذٍ بجرهم الثانية] فنشأ معهم وتزوج منهم » اه

وقال المسعودي : « وسار ... جرهم بن قحطان بولده ومن تبعهُ [وهم المعروفون باسم جرهم الاولى] وطافوا البلاد حتى اتوا مكة فنزلوها . [وعرفوا هناك باسم جرهم الثانية]

واحسن الاقوال واجْلاها وابينها في هذا البحث قول ابن خلدون وهذا نصهُ (٢ : ٣١) جرهم امتان : امة على عهد عاد (وكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية) (عنهُ ص ٣٠) وامة من ولد جرهم بن قحطان (وهي التي نزلت الحجاز ... لقحط اصاب اليمن . فلم يزالوا بمكة الى ان كان شأن اسمعيل ونبوتهُ فآمنوا بهِ وقاموا بامره وورثوا ولاية البيت عنهُ حتى غلبتهم عليهِ خزاعة وكنانة فخرجت جرهم من مكة ورجعوا الى ديارهم باليمن الى ان هلكوا) (عنهُ ص ٣٠) وبهذا كفاية لمن يريد ان يرى الحقيقة ويذعن لها

خلاصة المقالة

جرهم من الالفاظ المصحفة عن هدرم او هدورام الواردة في التوراة . وهو ابو امة او قبيلة سكنت اليمن في مبدإ امرها فعرفت باسم جرهم الاولى . ثم انتقل الابناء الى الحجاز ولا سيما الى مكة فعرفت هجرتهم هناك باسم جرهم الثانية . وقد ورد اسم هادورام مصحفاً تصحيفاً آخر وهو عادورام او عاد ارم وهي عاد الاولى . ومما ساعد هذا التصحيف او هذه التسمية ان العرب استعملوا كلمة ارم بمعناها الاصلي الارمي اي البائد ولهذا اطلقوا عليها ايضاً اسم عاد البائدة او عاد الاولى او عاد الحالكة . فاذا حفظت هذا كلهُ سهل عليك فهم تاريخ العرب بخصوص هذه الامة او هاتين الامتين ولم تعد ترى عقبةً في طريق تاريخهم . وفوق كل ذي علم عليم

امكج